# هوية المكان ...والاستيطان

د. عبد الكريم ابو خشان *

منذ بداية المشروع الصهيوني في فلسطين ،جهدت الحركة الصهيونية على إعادة هيكلة فلسطين وفقاً لمشروعها الاستيطاني المتشعب الأغراض والأساليب ؛ فقد أعادت تسمية الخارطة الجغرافية وفقاً لرؤية توراتية متعصّبة ، مستعينة ببعض المسميات العربية القارّة في الأذهان ،مع الحرص على إجراء بعض التعديلات التي من شأنها تعزيز الرواية الصهيونية من جهة ،كما عملت على توظيف كل وسائلها الإعلامية والإدارية من أجل تثبيت تلك الرواية ، وطمس معالم الهوية العربية للمكان .

إن ما ينبغي علينا وعيه ، والتنبه التام لمراميه، وتحليل آلياته هو طبيعة المشروع الصهيوني ؛ فهو مشروعٌ علميٌ مبنيٌ على نحوٍ مُحكم ، رغم طبيعته العدوانية ، والتي لا تضع في اعتبارها حجم الخسارات التي تُنزلها بالفلسطينيين إلا بقدر ما يؤثّر ذلك على صورتها في المحافل الدولية المُنحازة لها ، بل والمشاركة لها في كثيرٍ من الأحيان ، على اختلاف مصالحها ، لإنفاذ هذا المشروع ،تحت أنماطٍ من الأقنعة ذات الشرعية الزائفة أو تلك المُضللة .

إن الأمر من الاتساع والتشعّب بحيث لا يتسنّى لنا ، ضمن هذا السياق، وضع دراسة منهجية حول طبيعة هذا المشروع الصهيوني في مجمله ، ودراسة أنماطه ووسائله ،ومتغيرات هذه الوسائل وفقاً للمراحل الزمنية ، وانعكاسات أفعاله في الواقع وعلى الأرض الفلسطينية ، والساحة الإقليمية على نحوٍ عام ، غير أننا معنيون بالتركيز على جانب محدد من هذا المشروع بالتحليل والمعرفة بحيث نحاول إيضاح آلياته في "تهويد" المكان ، وطمس هويته العربية المحلية،ومحاولة تغريب الأجيال

* كاتب وأكاديمي فلسطيني

اللاحقة من أهل الأرض ، والتشكيك في مدى انتمائهم للمكان ،وبالتالي مدى أحقيتهم في امتلاكه، فضلاً عن الدفاع عنه بكل الوسائل المشروعة.

## عن الوجود التاريخي لليهود في المنطقة

من أجل أن يتخذ تناولنا للقضية طبيعة موضوعية ، فإننا لا ننكر الوجود اليهودي العربي في فلسطين على امتداد أحقاب متعددة ، وهو وجودٌ لا يتناقض مع الهوية العربية الفلسطينية للمكان ، كما ينسجم على نحوٍ عام مع الوجود اليهودي في المنطقة العربية عامةً ؛ فهناك اليهودي المصري واليهودي العراقي ، والمغربي واليمني ....الخ إنهم عربٌ يعيشون في المنطقة العربية منذ أحقابٍ متعددة ، وقد أسهم بعضهم في النهضة العربية على اختلاف مراحلها ؛ مثل السموأل بن عادياء وعلاقته بامرئ القيس ، كما أن هنالك العديد من الأسماء على امتداد التاريخ وحتى بدايات القرن العشرين ،كانت قد أسهمت وتفاعلت مع محيطها الثقافي والاقتصادي دونما كثير التباس أو تشويه...غير أن مؤامرة الغزو الصهيوني قد أعادت خلخلة البنية الاجتماعية في فلسطين، بل في المنطقة العربية على وجه عام، وربما تجاوزتها إلى المحيط الإسلامي...فقد تحولت صورة اليهودي من مستواها البسيط الذي لحق به بعض التنميط ، إلى صورةٍ جديدة ترتكز على الهجرة الكثيفة والمسلحة ، والتي جاءت من الغرب ، مصطحبةً معها كل أشكال العنف والتسلط والنهب والعدوان، الأمر الذي أرسى دعائم العداء ، وأعاد بعث كثيرٍ من الأحقاد الكامنة في بعض أنماط الخطاب الديني، كما أن الصهيونية لم تكن بعيدة عن تغذية هذا التوجه وتعميقه،سعياً منها إلى إضافة هذا الصراع إلى الصورة النمطية في الموروث الثقافي الأوروبي لليهودي ، فضلاً عن بقرة الهولوكوست الحلوب .

لقد اتسم المشروع الصهيوني بالمنهجية والمأسسة إلى حدٍ بعيد ، بينما تمثلت ردة الفعل العربية في فلسطين وخارجها بكثيرٍ من العشوائية ومنطق "الفزعة " الأمر الذي أدى إلى مجموعة من الكوارث المتتابعة التي ألمّت بالانسان الفلسطيني، وأدت إلى تآكل جهده واستنزاف طاقات المواجهة لديه ، إلى الحد الذي ألجأه في كثير من الأحيان إلى تقبّل خطابٍ مُحبَط يلهث وراء مشاريع هزيلة للتسوية ، مبرراً لنفسه أن حركة التاريخ تسير في الاتجاه المعاكس لمسيرته .

من ناحية أخرى افادت الحركة الوطنية الفلسطينية من بعض التجارب ، وأثبتت ، في بعض مراحلها،أنها تشكّل نداً حقيقياً للمشروع الصهيوني، واستطاعت أن تصل ،من خلال تضحياتها ، إلى مكانة ريادية في سوح الصراع العربي الصهيوني الاستعماري ، وقد حققت خطوة متقدمة في مسيرة الصراع حين التحمت بالقوى الثورية في آفاقها العربية والعالمية ، وبلغ الأمر ذروته عندما دفعت

المنظمات الدولية إلى الاعتراف بأن الحركة الصهيونية حركة عنصرية ، الأمر الذي أوغر صدور القيادات الصهيونية في العالم ، ولم تألُ تلك الدوائر جهداً حتى تمكنت خلال مرحلة الجزْر الثوري من إلغاء هذا القرار في الهيئات الدولية ، بل وأضافت ضِغثاً على أبُالة ، حين وصمت الحركات الثورية ومحيطها العربي والإسلامي ب " الإرهاب " الذي غدا بين عشية وضحاها ، مرادفاً لكل حركات المقاومة المناهضة للمشروع الصهيوني .

## طمس هوية المكان

إن واحداً من أهم أركان المشروع الصهيوني يتمثل في طمس هوية المكان ،وإعادة تشكيله وفقاً لاستراتيجياته، ولقد تمثّل ذلك في تيارين داخل تلك( الحركة الصهيونية):

الأوّل :المواجهة العلنية مع الآخرين ، والكشف عن الأبعاد الجغرافية للمشروع الممتد من النيل إلى الفرات ، وقد اتضح هذا من رمز الحركة الصهيونية وهو العلم الصهيوني بخطيه الأزرقين اللذين يحفان بالنجمة السداسية الدالة على هذا الكيان ، وقد كان جابوتنسكي من أهم رموز هذا التوجه ، فقد أسس حزباً صهيونياً اسمه حزب الصهاينة الإصلاحيين ، والذي يرى أن بقاء اليهود مختلطين بغيرهم من الأقوام لا يعدو أن يكون مجرّد "غيتو" جديد لليهود ينضاف إلى أكثر من سبعة وسبعين " غيتو" آخر موزعة على بلدان العالم أو في ما يدعونه ب" الدياسبورا" حيث يكون اليهود فيها مجرّد أقليات .

أما الطرف الثاني والذي مثّله الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان ورفاقه في اللجنة التنفيذية الصهيونية، فقد اختطا أسلوباً آخر يقوم على الحذر والسرية وعدم الإفصاح عن النوايا ، ويدّعي هذا التيار أنهم يسعون إلى الوفاق مع الشعب الفلسطيني، ويريدون التعاون معه بغرض النهوض بالبلاد ، وهو التيار الذي تمثّل في أحزاب اليسار والوسط في الكيان الصهيوني ، وقد تمكن هذا التيار من قيادة المشروع الصهيوني خلال العقود الأربعة الأولى من حياة هذا الكيان، وقد كانت وجهة نظره تقوم على المراهنة على العامل الزمني ، بحيث يتم تهويد المكان على نحو تدريجي،وكان من أهم زعماء هذا التيار دافيد بن غوريون ، وغولدا مائير, والجنرال وايزمان "صديق السادات" ، وشمعون بيريز ،والجنرال إيهود باراك آخر الزعماء المتنفذين في حزب العمل، والذي تضاءل شأنه إلى حد الانسحاق لصالح اليمين المستلهم لنظرية جابوتنسكي .

إن الخلاف الرئيس بين التيارين يكمن في الأسلوب بينما تبقى الأهداف واحدة ، وهي تقوم على تهويد كامل التراب الفلسطيني ، وطرد مواطنيه إلى محيطهم العربي ، بل إن المشروع ليتجاوز هذه الحدود الوهمية لفلسطين ، في اتجاه تكوين دولة يهودية تمتد من النيل إلى الفرات كما أسلفنا ، مراهنين على أن تعاقب الأجيال سيجعل العرب عامة والفلسطينيين خاصة ينسون معالم المكان ،

سواء بفرض الأمر الواقع ، وطرد من تبقّى على تراب الوطن ،أو بتشديد أساليب القمع والتهويد ، كما هو حاصل الآن ، بحيث يشعر الإنسان الفلسطيني باغترابه فوق ثرى وطنه، اعتقاداً منهم بأن من شأن ذلك دفع الأجيال للهجرة وإخلاء المكان ، ومن أساليب هذا الطمس تغيير التسميات بأخرى توراتية ، يتم تكريسها بفعل الاستخدام المتواتر ، ليس على ألسنة أجيالهم هم ، بل – وهذا هو الأدهى- على ألسنة أبناء الوطن الأصليين،الأمر الذي نفرد له هذه الصفحات ، والتي نرى أنها ينبغي لها أن تتطور في اتجاه دراسة متكاملة نضع لها الأصول والمرامي.

إن المتدبر للغة المسميات في الكيان الصهيوني سيكتشف أن رؤية شمولية منهجية قد تم إرساؤها في كل الاتجاهات ؛ فمن تسمية الدولة " إسرائيل " إلى تسمية الجيش " جيش الدفاع " إلى تسمية الأحزاب ، والأهم من هذا كله هو إعادة تسمية المكان.

إن تسمية " إسرائيل " هي قطعاً تسمية ماكرة تتكئ ،كما أسلفنا ، على الموروث الديني ، ليس فقط في الديانة اليهودية ، على ما اشتملت عليه من اضطراب، بل أيضاً في موروث كل من الديانتين المسيحية والإسلامية ، فهنالك مرجعيات دينية في هذه الكتب السماوية تشير إلى ارتباطٍ ما بين بني إسرائيل والأرض المقدسة، وهي دائماً فلسطين، ورغم أن بني إسرائيل لم يشكلوا على الدوام أمة كاملة النقاء ؛ فمن ناحية ، هنالك غالبية منهم قد انقلبوا على سيدنا موسى عليه السلام ، ومن ناحية أخرى ، فإن الصالحين منهم قد تنصّر بعضهم ، وبعضهم الآخر قد دخل الإسلام ، لذا فإن الادعاء بنقاء هذا الأصل هو ادعاء لا يثبت أمام الفحص التاريخي السليم، كما لا ينسجم مع سلوك أتباع سيدنا موسى المؤمنين برسالته، فقد قاد شعباً مؤمناً ولم يقد لصوصاً وسفاكي دماء.

إن التعبير عن " الأرض المسروقة" من أهلها الفلسطينيين بكلمة "مستوطنة" يكشف عن أحد أمرين؛ أو عن كليهما معاً، فإما أن الصهيوني قد وضع هذا التعبير على لسان الفلسطيني كغيره من التعبيرات المضللة (الاستعمار- والانتداب ...وما شابه) ثم تم تداوله دون كبير تريث أمام دلالاته الاجتماعية واللغوية ، بحيث تغدو هذه الأرض وطناً ، بكل ما تعنيه الكلمة " وطن " من دلالة، فهي من الاستقرار والراحة " يقال وطّنت الأرض ووطنتها توطيناً واستوطنتها أي اتخذتها وطناً" كما جاء في لسان العرب .

أما الأمر الثاني فهو أن أهل الأرض "الفلسطينيين " قد أطلقوا هذا التعبير على ما سرقه غُزاة الصهاينة من الأرض إنكاراً لهذا الفعل ، واستبعاداً لشرعيته ، كأن تقول للص هذا راعي البيت ، تندراً وتهكماً ، وهو أمرٌ يبدو في نظري ضعيفاً ، كما لا يستقيم لغوياً لأن حرف السين في استوطن تفيد التطويع والاستخدام، وفي كلتا الحالين فإن هذه التسمية لا تبدو موفقة في توصيف الحالة ، الأمر الذي يفسر إعراض بعض وسائل الإعلام العربية عن التسمية ، واستبدالها بتعبير آخر وهو "

المغتصبة" وهي تسمية لابأس بها إذا ما وُضعت مقابل الفعل الذي مورس على الأرض ، فهو فعلٌ يرتكز على الأخذ عنوة ودون وجه حق ، كما يشير إلى حالة الظلم المترتبة على ذلك الفعل.

إن أوّل "مُغتصَبة " تمّ إنشاؤها في الساحل الفلسطيني كانت على أرض قرية "ملبّس " وقد أطلقوا عليها إسم : فاتحة الأمل – بيتح تِكفا ، وهي تسمية لم تقم على قاعدة التسميات التوراتية ،بل روعي فيها النية المبيتة للاستيلاء على أماكن أخرى ،وهذا في حد ذاته يشير إلى بداية سلب الأرض، وحتى لو افترضنا جدلاً أن الأرض قد تم شراؤها، فإن هذا الشراء ، وتحت أي مبرر ، وبأيّة وسيلة كانت هو فعلٌ باطل ، بحكم أنه جرى في ظروف استثنائية هي ظروف الصراع، وبتواطؤ مع سلطات الانتداب البريطاني .

ويدخل ضمن قائمة المسميات المكانية المزورة أو التي جرى تغييرها إلى مسميات عبرية مجموعة كبيرة جداً من الأماكن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - أسماء مناطق: يهودا - شمرون – سهل يزراعيل .....الخ .

٢ - أسماء مدن: أورشليم – حيبرون – شخيم – بير شيفع – يريحو ...الخ .

٣ – أسماء قرى: عطروت – كفار عتصيون – مخماش – بساغوت...الخ .

ومن جانبٍ آخر، فإن هنالك مجموعة كبيرة من المسميات الخاصة بنظرة الصهاينة للشعب الفلسطيني، فإن من شأن استعراض بعض هذه النماذج، الكشف عن حرص المؤسسة الصهيونية على تكريس المفاهيم الصهيونية فوق هذه الأرض، واستبعاد أي وجودٍ آخر، من ذلك على سبيل المثال :

- تعريف الفلسطينيين الذين يعودون إلى وطنهم ب " المتسللين " .

- تعريف المواطنين الباقين في بيوتهم وقراهم بعد النكبة ب " الأقلية العربية " .

- تعريف المواطنين الفلسطينيين في القدس والضفة الغربية ب " سكان شرقي القدس – ويهودا وشمرون . فكلمة الساكن تختلف قطعاً عن المواطن من حيث العلاقة بالمكان ومدة المكوث فيه .

- تسمية خطوط الهدنة عام ١٩٤٨ بالخط الأخضر انسجاماً مع الدعوى الصهيونية بأن أرض فلسطين كانت صحراء فاستصلحوها، ومستنقعات فجففوها، فضلاً عن طمس مفهوم خطوط الهدنة التي تشير إلى ان الحرب قد توقفت عند هذه الخطوط ولكنها لم تنته عام ١٩٤٨.

- كما يمكن أن نلحق بهذه المفاهيم كلمة" اللاجئ" والتي تصنف الفلسطيني بأنه هو صاحب الفعل في اللجوء إلى الأماكن التي وصل إليها في المنطقة العربية ، دون أن تثبت حقه في المكان الذي أُجبر على الخروج منه ، على خلاف من تعبير " المشرّد " التي تشير ، ولو على نحوٍ ضمني إلى القوة القاهرة التي أجبرته على ترك بيته وأملاكه ، وهو ما يسمى حديثاً ب " الهجرة القسرية ".

## هدف الدراسة:

نحن ندرك أن جهوداً حثيثة قد بُذلت في اتجاه تعزيز انتماء الفلسطيني على تراب وطنه، كما ندرك كذلك أننا لسنا مجبرين على أن نبدأ من الصفر في اتجاه تعديل الخلل الناتج عن محاولات المشروع الصهيوني طمس معالم المكان ،بإسقاط التسميات العربية ، بل إن الأمر لا يعدو ، في نظرنا ، إعادة تفعيل مجموعة من الجهود ، وإيجاد حلقات الوصل فيما بينها ، والتركيز على إعادة النظر في كثير من التسميات السائدة ، وإن كان بعضها قد أخذ طريقه على الألسن والأقلام ، ومن الصعب تعديل المفهوم الشائع ، مثل " وعد بلفور " الذي لم يكن " وعداً " أبداً وإنما كان " تصريح بلفور " ، ولكن الألحاح الصهيوني على قضية الوعد الإلهي عملت على تكريس المفهوم على المستويات السياسية والاجتماعية واللغوية .

إن مصدراً ثميناً من مصادر الدراسة التي يمكن أن تيسر وتخدم أهداف هذه المبادرة هو مشروع " أطلس فلسطين " الذي قام على إنجازه فريق عمل مكون من مجموعة من الباحثين والباحثات تحت إشراف وتوجيه الباحث الدكتور سلمان أبوستة، حيث توصل الباحثون إلى إعادة تسمية ما يزيد على ٣٢ ألف مسمّى في إطار حصر الأماكن في فلسطين التاريخية ، وهو جهد يحظى باحترام وتقدير بالغين في أوساط الباحثين.

إن من شأن توفير هذا الجهد " أطلس فلسطين " لوسائل الإعلام الفلسطينية، ومراكزالبحث والمؤسسات التعليمية ؛من مدارس وجامعات يسهم دون شك في إعادة التعريف بالمشهد الفلسطيني في عقول وقلوب الأجيال الفلسطينية التي راهن الصهاينة على تضليلها، وطمس معالم الوطن الفلسطيني في وجدانها، فمن غير المعقول أن ينجح الباطل الصهيوني في تزييف الحقيقة بعد أربعة آلاف سنة، ونفشل نحن في الوقت الذي نرى فيه الصهاينة يعيشون في بيوتنا وحقولنا أمام أعيننا.

ومن باب التذكير والاعتراف بالفضل لكثيرٍ من الباحثين والباحثات، علينا أن نتوقف بكثيرٍ من الإجلال لجهود الدكتور كمال عبدالفتاح ومجموعة كبيرة من طلابه الذين أصبحوا أساتذة في الجامعات ، والذين واصلوا العمل تحت مسميات مختلفة، كما لا يفوتنا أن نشير إلى جهود الدكتور شكري عرّاف في التركيز على إعادة بعث أسماء القرى المدمّرة، فضلاً عن جهود أخرى كثيرة لم يتسع المجال لذكرها.

...وبعد، فإن المشروع الصهيوني قد فرض علينا في هذا الوطن، وربما على امتداد وطننا العربي أن نبقى في حالة دفاع عن النفس طيلة ما يزيد على ستة عقود، وإن من واجبنا وواجب الوطن والشعب على أبنائه ومؤسساته التيقظ إلى أبعاد هذا المشروع الصهيوني ومراميه، فهو لا يتوقف عند حد، بل يضع في اعتباره المكان والإنسان والقيم والثقافة، بل والمعرفة على نحوٍ عام، وما لم نكن على مستوى عالٍ من الإدراك واليقظة والمبادرة، فإننا نحن وأجيالنا اللاحقة سنجد أنفسنا بين عشيةٍ وضحاتها خارج دائرة الصراع.